التسامح عند الإمام الغزالي

(٤٥٠ – ٥٠٥ هـ)

أ.د/ محمد السيد الجليند

أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية

دار العلوم – جامعة القاهرة

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم أمين.

وبعد

يمثل التسامح في تراث الغزالي أحد المقاصد الكلية للوحي السماوي في الأديان السماوية الثلاثة، وهو من كليات الأخلاق الحسنة التي جاء الرسول ﷺ لإتمامها في قوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ولفظ التسامح قليل الورود في تراث الغزالي، وإنما وردت مفردات التسامح من (العفو، الرحمة، التراحم، المحبة، الألفة، الحلم... الخ)؛ لأنها ألفاظ قرآنية آثر الغزالي استعمالها بديلًا عن لفظ التسامح لارتباطها بالحالات الجزئية في السلوك الإنساني، كما يمثل التسامح عنده أمرًا دينيًّا نزل به الوحي في صيغة الأمر الذي يُثاب المرء على فعله؛ لأنه من علامات كمال الإيمان وتمام اليقين بما عند الله من أجر للمحسنين والعافين عن الناس والكاظمين الغيظ... إلخ.

ويرفع الغزالي التسامح إلى مرتبة الفريضة الدينية، فيتكلم عنه على أنه حق للمسلم على المسلم، وهو ضرورة اجتماعية له أثره في بناء الأسرة والمجتمع؛ لتحقيق مبدأ (ليتعارفوا) كمدخل للتعايش السلمي بين الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم.

يرى الغزالي أن التخلق بأخلاق الله من (العفو، الحلم، الرحمة، الصبر، الغفار، الودود... الخ) أمر إلهي يجب التخلق به لقول الرسول ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله». ويضع الغزالي كتابًا مستقلًا لبيان ما يجب على المسلم أن يتخلق به من أسماء الله وصفاته، وأن ذلك سياج أمان للتعايش السلمي في المجتمع.

والبحث مقسم إلى فقرات تكاملية فرضتها طبيعة المنهج الذي تناول به الغزالي قضية التسامح باعتباره من كليات الوحي في الأديان السماوية الثلاثة.

(١) تناول البحث المعنى اللغوي والاصطلاحي للكلمة والعلاقة بينهما.

(٢) التأصيل الشرعي لموقف الغزالي مدعومًا بالكتاب والسُّنة.

(٣) موقف الغزالي من ظاهرة الغلو والتكفير والتطرف الذي ظهر بين بعض علماء الكلام بسبب تعصبهم للرأي وغيابهم عن مبدأ التسامح.

(٤) أثر التسامح في بناء جسور الألفة والمحبة في المجتمع.

(٥) أثر التسامح في بناء الأسرة والمجتمع.

(٦) التسامح من أعمال القلوب.

ولقد أورد الغزالي في بيانه لأهمية مبدأ التسامح كثيرًا من النصوص والأمثلة والوقائع والإسرائيليات من تراث اليهود والنصارى؛ ليدعم بها أن مبدأ التسامح من كليات الوحي في الأديان الثلاثة، وأكد الرسول ذلك، ونزل به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وإن رحمة الله سبقت غضبه إيذانًا بشيوع مبدأ التسامح بين الناس، وحاولنا الاختصار في ذلك بعيدًا عن الاستطراد بذكر هذه الأمثلة خوفًا من الإطالة.

والله ولي التوفيق

أ.د/ محمد السيد الجليند

-١-

التسامح اللفظ والمعنى

(أ) الدلالة اللغوية:

جاء في لسان العرب لابن منظور مادة (س. م. ج) [٢/٤٨٩- ٤٩٠]: السماح والسماحة: الجود. يقال: سمح سماحةً وسموحةً وسماحًا: جاد وأعطى. ويقال: سَمَحَ وأَسْمَحَ: إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء عن طيب نفس. ويقال في السخاء: سمح، وأسمحت نفسه: إذا انقادت، وسَمَحَ لي فلان: إذا أعطاني، وسمح لي بذلك: وافقني على المطلوب، والمسامحة تعني المساهلة، يقال: تسامحوا بمعنى تساهلوا. وفي الحديث: «السماح رباح» [مسند الشهاب للقضاعي: ١/٤٨ ح ٢٣]، أي المساهلة في الأشياء تربح صاحبها. وسمح وتسمَّح: فعل شيئًا فسهَّل فيه، أنشد ثعلب:

ولكن إذا ما جلَّ خطب فسامحت به النفس يومًا كان للكره أذهبا

[البيت من بحر الطويل]

وفي الحديث: أن ابن عباس سُئِل عن رجل شرب لبنًا محضًّا أيتوضأ؟ قال في الإجابة: اسمح يسمح لك. بمعنى سهِّلْ يُسهِّلُ لك وعليك.

ومنه قولهم: الحنيفية السمحة: ليس فيها ضيق ولا شدة. ومنه سُمُح، بالضم: جاد بما لديه.

وقول الرسول ﷺ: «رحم اللهُ رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى» [مسند الإمام أحمد: ٢/ ٢١٠].

وتقول العرب: عليك بالحق فإن فيه لمسمحًا أي متسعًا، كما قالوا: إن فيه لمندوحة، ومنه اشتقت كلمة التسامح حاملة لمعنى التساهل والجود والسخاء والعطاء.

ونلاحظ أن دلالة لفظ التسامح تتسع لتشمل معنى التساهل والتيسير والجود والعطاء والسخاء عن كرم وطبع وليس عن كره وممالأة، فهو لفظ جامع لمعانٍ أخلاقية تمثل قيمًا تربوية من جانب وأخلاقًا دينية من جانب آخر.

(ب) الدلالة الاصطلاحية:

من المعلوم أن كل كلمة لها دلالة معجمية يهتم بها سدنة اللغة العربية، حين يتكلمون عن الوضع اللغوي للألفاظ، وقد يكون لنفس الكلمة دلالة اصطلاحية يختص بها العلماء المتخصصون في كل فن، فيستعلمون نفس الكلمة للدلالة على معانٍ متعددة تختلف قربًا أو بعدًا عن المعنى المعجمي للكلمة. فإذا كانت كلمة التسامح تدل في أصل وضعها المعجمي على (التساهل، الجود، العطاء، السخاء عن كرم وطيب نفس...) فإن دلالة نفس الكلمة تتسع عند أهل الاصطلاح ؛ لتدل على معانٍ أخرى يصطلحون على استعمالها فيما بينهم، وأعني بأهل الاصطلاح هنا (علماء الأخلاق، علماء التربية والاجتماع، علماء النفس، أقطاب التصوف)، والغزالي واحد من هؤلاء جميعًا، فهو قد كتب في التربية (رسالة أيها الولد، روضة الطالبين، معراج السالكين، وهو من علماء الأخلاق وقد كتب موسوعته (إحياء علوم الدين) في التربية والأخلاق وعلم الاجتماع والتصوف، وهو من كبار الصوفية، وقد كتب في التصوف معظم رسائله الصغيرة التي ضمَّنها في كتابه الإحياء، ومن هنا فإن كلمة التسامح عنده تتسع دلالتها لتشمل فيما تشمل (العفو، الصفح، والحلم، الإحسان، الرحمة، المحبة... إلخ) وهي ألفاظ قرآنية، وقد راعى الغزالي في استعمال هذه الكلمات جانبين:

أولًا: أنها كلها كلمات مشحونة بمعنى التسامح، وتتصل بدلالتها اللغوية من قريب أو من بعيد، ولفظ التسامح من الكلمات الكلية الجامعة لكل معاني الأخلاق الحسنة.

ثانيًا: ولكن لفظ التسامح لم يرد في القرآن الكريم بلفظه، وإنما وردت الألفاظ السابقة باعتبارها حاملة لمعنى التسامح، وتضيف إلى المعنى الدلالي للتسامح معنى جديدًا ليس موجودًا به ولا دالًا عليه. فهي ألفاظ قرآنية دالة على التسامح وزيادة.

ومن هنا نجد الغزالي يفضل استعمال هذه المفردات القرآنية كثيرًا لاشتمالها على معنى التسامح وزيادة، ويعقد في مؤلفاته أبوابًا وفصولًا، وتكلَّم فيها عن الرحمة والتراحم، عن المحبة، عن العفو والصفح، الحلم، وهي كلها تدل على التسامح، وتضيف معنى قرآنيًّا مقصود للشارع الحكيم.

بين المعنى الاصطلاحي والمعنى المعجمي:

يشترك المعنى الاصطلاحي مع المعنى المعجمي في أن كلًّا منهما يدل على الجود والعطاء والسخاء بمعنى ما. فإن مفردات التسامح من (العفو، الحلم، الصفح، الرحمة... إلخ) عطاء وسخاء وجود، ولكنه عطاء نفسي وروحي، له أثره في سلوك الفرد، وفي تخلقه بالتسامح أكثر من الآثار المادية المتمثلة في عطاء المال أو غيره من الماديات.

بين التعصُّب والتسامح:

هما من الألفاظ المتضادة، فالتسامح ضد التعصُّب، والضدان لا يجتمعان في وقت واحد في قلب المؤمن. فإذا تحلَّى المرء بالتسامح فقد تخلَّى عن التعصُّب والتباغض، وإذا تخلَّى عن التسامح فقد شغُل قلبه بالتباغض والتشاحن. ولما كان خُلُق التحلي بالتسامح يستلزم التخلي عن التعصُّب والتباغض تكلَّم الغزالي كثيرًا عن ضرورة التخلص من الغضب والتباغض؛ لأنهما بريد التعصب، وأوصى كثيرًا بكظم الغيظ والحلم، وهما من علامات التسامح والتقوى، قال تعالى في أصحاب الجنة: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وكان من وصايا الرسول ﷺ: «لا تغضب» [صحيح البخاري: ٢٨/٨ ح ٦١١٦]، «ومن سهَّل سهَّل الله له» [صحيح مسلم: ٢٠٧٤/٤ ح ٢٦٩٩].

ويضع الغزالي منهجًا فلسفيًّا يخاطب به الفلاسفة والمتعصبين من المتكلمين تمكن خطواته من الوصول إلى التحلي بخلق التسامح والتخلي عن التعصب، ويتلخص هذا المنهج في أن للنفس الإنسانية قوى ثلاثة: (١) قوى عاقلة. (٢) قوى شهوانية (٣) قوى غضبية، فإذا سيطرت القوى العاقلة على القوتين: الغضبية والشهوانية اعتدل سلوك الإنسان، وأصبح كائنًا أخلاقيًّا. أما إذا سيطرت إحدى القوتين الأخيرتين كان الإنسان شهوانيًّا أو متهورًا غضوبًا. وكلاهما مذموم عقلًا وشرعًا.

ولكي يستطيع الإنسان أن يسيطر على القوى الشهوانية والغضبية لابد من مجاهدة النفس وترويضها؛ لكي يتغلب على شهوتها وميلها إلى الثأر والغضب عند وجود المثيرات والداعي إلى

ذلك، وهذه المجاهدة يتم القيام بها بغلبة القوى العاقلة وسيطرتها على شهوات النفس والتحلي بالصبر والعفة والحلم والرحمة وكلها فضائل يبدو التخلق بها صعبًا في بداية الطريق، ويستعين المرء على ذلك في سلوكه بالله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإذا تجاوز مرحلة البداية يصبح التحلي بهذه الفضائل سهلًا وميسورًا؛ بل يكون عادةً وسجيةً له يمارسها في سلوكه مع الصديق والعدو بلا مشقة ولا صعوبة. ويعرف الغزالي هذا الوضع بأنه هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية [الإحياء: ٥٦/٣] لأنه قد أصبح العفو والمحبة، والصفح) عادة وسلوكًا عاديًّا عند الإنسان.

والمهم هنا أن خلق التسامح يقتضي بالضرورة التخلي عن التعصُّب والمغاضبة والتربُّص بالآخر، وهذه لا يتخلص المرء منها إلَّا إذا سيطرت القوى العاقلة على الشهوانية والغضبية، والغزالي يستصحب هذه القضية وهو يحاور المتكلمين والفلاسفة، ويوضح لهم أنهم لم يتخلقوا بالتسامح مع المخالف لهم في الرأي؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتخلوا عن التعصُّب للرأي والتربص بالآخر، وغاب عنهم أن خلق التسامح فريضة دينية، وأن الشرع أمر بالعفو والصفح والتراحم والمحبة، وهم بذلك ساعدوا في شيوع روح التعصب والتطرُّف بين الفرق والمذاهب بدلًا من العفو والتراحم.

-٢-

التأصيل الشرعي لموقف الغزالي من خُلُق التسامُح

التسامح شعار الإسلام:

لقد عاش الغزالي مرحلتين في حياته الفكرية، كان لكل مرحلة خصائصها المميزة لها:

(١) تمثل المرحلة الأولى حياة (الغزالي متكلمًا وفيلسوفًا) له منهجه في الحوار والجدل مع الخصوم والمخالفين له في الرأي من الفلاسفة وعلماء الكلام.

أما المرحلة الثانية فكانت بعد تجربته التي عاشها شاكًّا في وسائل المعرفة الحسية والعقل معًا (مرحلة الشك) تبيَّن له من خلالها أن الحقيقة التي يسعى إلى اكتشافها لا تحصل بالجدل العقلي الذي يسلكه علماء الكلام ولا بالمنهج الفلسفي الذي

لا يفيد في تحصيل الإيمان بما وراء الحواس، وأن الحقيقة التي يسعى إليها لا تحصل إلَّا بالكشف والرياضة والمجاهدة النفسية والتدريب المستمر على تحمل المشاق والصبر عليها في سبيل التخلق بأخلاق الله وصولًا إلى الكمال الإنساني بقدر الاستطاعة البشرية. ولكي يصل الغزالي إلى تحقيق مطلوبه انتقل بفكره من مرحلة التنظير والكلام إلى مرحلة التطبيق العملي والمجاهدة والتربية والممارسة العملية في التأسيس لعلم أخلاق عملية لا يكتفي بالتنظير والكلام الجدلي؛ بل يكون سبيله التطبيق العملي والممارسة الفعلية، وبدأ الغزالي هذه المرحلة بتأليف كتابه العظيم «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» يصرح الغزالي في تقديمه لهذا الكتاب بالغرض الذي يسعى إلى تحقيقه، فيقول في [المقصد الأسنى: ص ٢١- ٢٤] فصل في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه.

ثم يبدأ الفصل بقوله: اعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه، ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة، ليس له من حظه إلا سماع الاسم، وهذه الدرجة يشاركه فيها البهائم، وكمال الإنسان إنما يكون بالارتقاء عن هذه الدرجة ليعيش معنى الاسم حالًا ومقالًا.

ويرسم الغزالي منهجًا يساعد به طالب الكمال من الإنسان حتى يتحقق له التحلي بأخلاق الله تحقيقًا لقول الرسول ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله» [سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٣٤٦/٦ (٢٨٢٢) لا أصل له، أورده السيوطي في تأييد الحقيقة العلية دون عزو]، ومن أهم خطوات المنهج:

(١) معرفة معاني أسماء الله تعالى وصفاته على سبيل المكاشفة بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ، وينكشف لهم اتصاف الله تعالى بصفات الكمال انكشافًا يجري في وضوحه مجرى اليقين الذي يحصل للإنسان بصفاء باطنه.

(٢) استعظام ما ينكشف لهم من معاني هذه الصفات والأسماء استعظامًا يبعث فيهم الشوق إلى التحلي بها قدر الاستطاعة قربًا إلى الله وشوقًا إلى رضاه، وتشبهًا به. [المقصد الأسنى: ص ٢٢].

وفي خاتمة هذا الكتاب يقول الغزالي معتذرًا لسائله عن الإطالة: «اعلم أنه إنما حملني على ذكر هذه التنبيهات بعد هذه الأسماء والصفات قول الرسول ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله تعالى»، وقوله ﷺ: «إن لله تعالى كذا وكذا خلقًا، من تخلَّق بواحد منها دخل الجنة...إلخ» [المقصد الأسنى: ص٩٥].

وبين مقدمة الكتاب وخاتمته يرسم الغزالي منهجه الذي يرتضيه معلمًا للسلوك نحو تحقيق مقصده الأسنى من التخلق بأخلاق الله إيمانًا بأن التسامُح أمر إلهي، ليجعل من خلق التسامح فريضة دينية لمن أراد الوصول من أهل الطريق ومن أراد أن يتشبه بالله تعالى على قدر الاستطاعة.

ويبدأ الغزالي الكتاب بسرد أسماء الله الحسنى (الرحمن الرحيم)، ويعقب على كل اسم ببيان حظ العبد من التخلق والتحلي بمعاني هذه الأسماء، والذي يهمنا من هذه الأسماء في مقامنا هذا ما يتصل من هذه الأسماء بخلق التسامح، وتشاركه في تحقيق المعنى المطلوب؛ ليعيش بها المرء في مجتمعه حاملًا لهذه المعاني الأخلاقية، ويكون العبد بها عبدًا ربانيًّا، كما قال الغزالي.

ومن هذه الأسماء (الرحمن الرحيم، الحليم، العفو، الغفور، المحسن، التواب، الودود، السلام...)، وعندما يذكر الغزالي هذه الأسماء يتبعها مباشرة ببيان حظ العبد من التحلي بمعاني هذا الاسم.

(١) الرحمن الرحيم:

وحظ العبد من التحلي بهذه الصفة الربانية أن يرحم عباد الله فيصرفهم عن طريق الغفلة عن الله إلى ما يتوصلون به إلى الله من التحلي بالتراحم فيما بينهم، ويعظهم باللطف والرفق دون العنف والشدة، واستعمال أحسن الألفاظ وألطف العبارات وأيسرها فتحًا لقلوب الغافلين، وتشويقًا لنفوس المريدين، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة والشفقة لا بعين السخرية والازدراء، وأن يكون حريصًا على هداية العصاة كما لو كان مرسلًا إليهم من قبل الله رحمة بهم وشفقة

من غضب الله عليهم، وحظه من اسم الرحيم أن لا يدع حاجة لمحتاج إلا سعى إلى تحصيلها له بقدر طاقته، ولا يترك فقيرًا في بلده إلا وسعى لسد بتعهده ودفع فقره [المقصد الأسنى: ص٣٥].

(٢) الغفار:

وحظ العبد من اسم الغفار أن يستر عيوب غيره، كما يحب أن يستر الغير عيبه، فإن من ستر مسلمًا ستره الله، ومن تتبع عورات الناس تتبع الله عورته، حتى يفضحه في خاصة بيته، ويدخل في ذلك المغتاب والمتجسس والمتحسس، والمؤمن لا يذكر أخاه إلا بأحسن ما فيه من خصال الخير.

(٣) اللطيف:

وحظ العبد من هذا الاسم أن يتلطف بعباد الله في دعوته وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر من غير ازدراء ولا تكبر، ومن غير خصومة ولا تعصب، فإن التعصب يولد المعاندة في النفس، والنفور من الداعية، وأن يتعامل مع كل إنسان بما يناسب حاله، ويحقق له مقصده وغرضه لطفًا به وتلطفًا كما كان يفعل الرسول ﷺ في دعوته بالموعظة الحسنة، وبما هو الأحسن من أساليب الحوار جذبًا للنفوس وترقيقا للقلوب [المقصد الأسنى: ص ٦٣].

(٤) الحليم:

هنا يختصر الغزالي القول؛ لأن التحلي بصفة الحليم لا تحتاج إلى مزيد بيان؛ لأن حظ العبد من الحلم ظاهر لا يحتاج إلى التفصيل، والحلم سيد الأخلاق لمن أراد أن يتخلق ويتشبه بالملأ الأعلى. [المقصد الأسنى: ص ٦٤].

(٥) الودود:

وحظ العبد من التحلي بهذا الاسم أن يتحقق في سلوكه الاجتماعي قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [صحيح البخاري: ١٢/١ ح١٣]، وأعلى من ذلك درجة من يؤثرهم على نفسه تحقيقًا للوصف القرآني لهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وكمال ذلك لا يمنعه من الإيثار غضب وحقد من ناله الأذى ممن يتودد إليهم كما فعل ﷺ حين كسرت رباعيته يوم أُحُد، فقال عليه السلام: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون» [دلائل النبوة للبيهقي: ٤٥/٣ ح ١٣٧٥] فلم يمنعه سوء صنيعهم من الدعوة لهم وإرادة الخير لهم. [المقصد: ص ٧٧].

(٦) التواب:

وحظ العبد من هذه الصفة أن يتحلى بقبول المعاذير من عباد الله، ويسامحهم بقبول اعتذارهم عما قاموا به من أفعال تسيء إليهم، كما أن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، فمن قَبِلَ معاذير الناس والمجرمين من رعاياه وأصدقائه ومعارفه مرة بعد مرة، فقد تحقق بهذا الوصف من التسامح مع المذنبين [المقصد: ص ٨٨].

(٧) العفو:

والتحلي بهذه الصفة يتم للعبد بأن يعفو عمن أساء إليه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، كما يرى الله تعالى يرزق العصاة والكافر في الدنيا غير معاجل لهم بالعقوبة؛ بل ربما يعفو عنهم إذا تابوا وأنابوا، وربما يمحو سيئاتهم، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. [المقصد: ص٨٩].

(٨) السلام:

هو الذي تسلم ذاته عن العيوب وصفاته عن النقص وأفعاله عن الشر، حتى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلامة إلَّا وهي معزية إليه وصادرة منه.

والتخلُّق بصفة السلام عند العبد أن يسلم من الغش والحقد والحسد وإرادة الشر، وأن تسلم جوارحه من المحظورات والآثام، وأن تسلم من الانتكاس والانعكاس صفاته، وهذا هو الذي يأتي الله بقلب سليم يوم القيامة، وهو السلام من العباد القريب من السلام المطلق (الله).

وأعني بالانتكاس في صفاته أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه؛ إذ الحق عكسه وهو أن تكون شهوته وغضبه أسير عقله وطوعه. فإذا انعكس فقد انتكس [المقصد الأسنى: ص٣٩ - ٤٠].

ولا أريد أن استطرد في شرح موقف الغزالي لأسماء الله الحسنى خاصة ما يتصل منها بصفات الجمال باعتبارها المصدر الأساس في رسم منهجه التربوي والأخلاقي في ترسيخ قيمة التسامح باعتبارها شعار الإسلام كفريضة دينية وقيمة أخلاقية وضرورة اجتماعية؛ لأن صلاح المجتمع لا يتم النهوض به إلَّا إذا تأسس على قيم تربوية تستمد عناصرها من مفردات قيمة التسامح التي أشار إليها الغزالي في تنبيهاته عقب كل اسم من أسماء الله الحسنى؛ ولذلك فإن رسالة أسماء الله الحسنى تعتبر برنامجًا متكاملًا في تربية الفرد على كل خلق سني يتعامل به الفرد والمجتمع إعمالًا لمبدأ التخلق بأخلاق الله ولتحقيق التعايش السلمي بين الناس الذين تختلف طبائعهم وتتنوع ثقافتهم وأديانهم وعقائدهم المذهبية، ولا سبيل إلى احتواء الناس وهم على هذا الاختلاف والتنوع إلا مبدأ التسامح معهم والتخلق والتعامل بهذه القيم المستمدة من أسماء الله الحسنى والتحلي بها علمًا وعملًا، سلوكًا واعتقادًا؛ لأنها كل نابعة من فيض الإحسان الرباني على الفطرة الإنسانية التي طبعت على محبة كل خلق سني وجبلت عليها والتحلي بها، ولا يخرج الإنسان عن منطق هذه القيم السليمة إلَّا إذا فسدت فطرته بسبب عوامل خارجية عنها. ولقد أفاض الغزالي في شرح هذه القضية في العديد من مؤلفاته ورسائله الصغيرة كالرسالة الوعظية ومعراج السالكين، ومعارج القدس بحيث يمكن القول إن حديث الغزالي عن الارتباط الوثيق بين القيم الأخلاقية الكبرى - وفي مقدمتها قيمة التسامح - والفطرة السليمة يكاد يكون ضروريًّا.

ويستحضر الغزالي في كتابه الإحياء الكثير من الآيات القرآنية التي حملت معالم المنهج العملي للتحلي بخلق التسامح وهذه الأخلاق الربانية التي كانت ماثلة في حياة الرسول ﷺ في معاملته للناس: المؤمن منهم وغير المؤمن، الموافق منهم والمخالف. قال تعالى لرسول الكريم:

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]

﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٢٢]

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤ – ٣٥].

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] [إحياء علوم الدين: ٢/٣٥٨ – ٣٦٠].

ويستمر الغزالي في سرد الآيات القرآنية التي توضح أن التسامح أمر إلهي وفريضة دينية، وهي التي حملت معالم المنهج الذي تأدب به رسول الله ﷺ وسار على منواله، وخاطبه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤].

وقال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» [المقاصد الحسنة للسخاوي: ص ٧٤، قال السخاوي: وبالجملة فهو كما قال ابن تيمية: لا يعرف له إسناد ثابت].

وعن هذه المعالم الربانية يقول الغزالي في [$الإحياء: ٢/٣٥٨ – ٣٦٠]: الرسول هو المقصود بهذه التأديبات القرآنية.. ثم منه يشرق النور على كافة الخلق، فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به، ولذلك قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [مسند البزار: ١٥/٣٦٤ ح ٨٩٤٩]، إن الله يحب مكارم الأحلاق، ويبغض سفسافها» [الأسماء والصفات للبيهقي: ص ١٤٣- ١٤٤ ح ٨٨].

-٣-

التعصُّب والتسامح بين الغزالي وعلماء الكلام

من المعروف أن الغزالي أشعري المذهب، وهو قامة كبيرة في تاريخ علم الكلام وصاحب رأي معتبر يؤخذ به في النفي والإثبات فيما يتصل بأصول المذهب وقواعده؛ لكنه مع ذلك يكره التقليد ويذم المقلدين الذين يعتنقون الآراء دون دليل ولا برهان، ويرى أن التقليد للآراء والأئمة دون دليل أو برهان كان سببًا رئيسًا في نشر وشيوع ظاهرة التعصب والتطرُّف بين علماء الكلام وأدى ذلك إلى تبادل الاتهامات والرمي بالكفر والزندقة بين الفرق الكلامية وأتباع المذاهب، وحاول كل فريق أن يدعي لنفسه احتكار الحقيقة، وأنه وحده يملك الدليل والبرهان، وما سواه خارج عن جادة الصواب وربما كان خارجًا عن الملة أو المذهب، وهو إما زنديق عند البعض أو كافرًا عند البعض الآخر، وزاد من حيرة الغزالي شيوع ظاهر التكفير بين الفرق والاستهانة بهذا الحكم الشرعي دون دليل حتى قال بعضهم: «أنا أكفر من يكفرني، ومن لا يكفرني فلا» [فيصل التفرقة: ص ١٨٠].

ولقد جرد الغزالي قلمه للرد على الغلاة والمتطرفين من أتباع الفرق، ووضع كتابين مهمين في تاريخ علم الكلام هما: «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، و«القسطاس المستقيم»، بَيَّن في الأول منهما أن شيوع ظاهرة التكفير والتطرف بين علماء الكلام (المعتزلة والأشاعرة) على سواء يرجع سببه إلى الجهل بأحكام التكفير وما يكفر به وما لا يكفر به، ومحبة التقليد للمذهب والإمام دون سندٍ ولا برهان، وتكلَّم في الكتاب الثاني عن موازين الحقِّ التي ارتضاها لبيان أن برهان القرآن الكريم أوضح دليلٍ على مراد الله من أدلة الفلاسفة والمتكلمين.

يرد الغزالي على المتعصبين غيابهم عن التخلق بخلق التسامح، وتعصُّب كل فريق منهم لمذهبه وشيخه، وفضلوا التقليد على الاجتهاد والبحث عن الحقيقة، وترتب على ذلك أن كلًّا من الفريقين رفض الآخر وادَّعى احتكار الحقيقة له دون غيره، وكأنه يملك بيده مفاتيح رحمة الله، ويحاول الغزالي أن يسأل غلاة المتكلمين عن الدليل الذي امتلكوه وحكموا به على تكفير من يخالفهم.

لماذا يدعي الأشعري أنه وحده يمتلك الحقيقة دون غيره؟ هل لمجرد السبق الزمني؟ إن كان كذلك فإن المعتزلة أسبق تاريخيًّا من الأشاعرة.

هل ذلك لزيادة فضل انفرد به الأشعري دون غيره من العلماء؟ إن كان ذلك فهو ادعاء باطل. ويستطيع أن يدعيه كل واحد من الخصوم.

إن التكفير حكم شرعي نتلقاه عن المعصوم وليس اجتهادًا عقليًّا يصل إليه المجتهد بعيدًا عن النص الشرعي عن المعصوم. فلماذا تتبادل الفرق هذه التهمة دون سندٍ لواحدٍ منها إلَّا مجرد التعصُّب والتقليد للمذهب. وهل رأي إمام المذهب معصوم حتى نتخذه معيارًا للحكم بالكفر على من خالفه. [فيصل التفرقة: ص ١٤٦].

لقد نبَّه الغزالي هؤلاء الغلاة أنهم أبعد الناس عن فهم النصوص وروح الشريعة، فإن الدين أصول وفروع، وأصول الدين ثلاثة:

(١) الإيمان بالله ربًّا خالقًا وإلهًا معبودًا.

(٢) الإيمان باليوم الآخر.

(٣) الإيمان بالنبوة.

وما عدا هذه الثلاثة فروع، وإن الخلاف في الفروع لا يقتضي تكفيرًا، وإنما يدور الاجتهاد فيه بين الصواب والخطأ وليس بين الكفر والإيمان، وقد يكون الصواب مع مخالفك في الرأي، فكيف تحكم عليه بالكفر والخروج عن الملة. [فيصل التفرقة: ص ١٤٦ – ١٤٩].

ويرصد الغزالي أسباب التعصب بين الفرق الإسلامية التي أدت بهم إلى شيوع ظاهرة التكفير، فيجدها كامنة في التقليد للإمام والتعصب للمذهب دون اجتهاد منهم لفحص الآراء واستبيان ما فيها من حق فيقبله، وباطل فيرفضه، ثم يعلن رفضه للتقليد وذمه للمقلد، ويدعو كل متعصب إلى مصارحة نفسه بجهله وعجزه عن كشف الحقيقة، وإن حبه لشيخه سابق على حبه لاعتناق الحق والوصول إليه، ويكتب وصيته، فيقول: اعلم أن ما يكفر به، وما لا يكفر يستدعي تفصيلًا وتطويلًا... فاقنع الآن بوصية وقانون.

(١) أما الوصية: فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا يقولون: لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، غير مناقضين لها، والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر أو بغير عذر، فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.

(٢) وأما القانون: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بالأصول والقواعد، وقسم يتعلق بالفروع، وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله وبرسله، واليوم الآخر، وما عداه فروع، واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلًا إلَّا في مسألة واحدة، وهي أن ينكر أصلًا دينيًّا علم من الرسول ﷺ بالتواتر [فيصل التفرقة: ص ١٦٥].

مراتب الوجود التي لا تستدعي تكفيرًا:

ومن أخطر القضايا التي عاشها الغزالي مع المتكلمين باختلاف مذاهبهم قضية النص الديني وكيف تفهم النص وتقف على مقاصد الوحي فيه، فإن الفرق الإسلامية جعلت أصولها العقلية أساسًا يُقاس عليه قبول ظاهر النصوص أو رفضها، وكان هذا الموقف سببًا في طغيان ظاهرة الغلو والإقصاء والتكفير، ويحاول الغزالي فض هذا الاشتباك بوضع قانون يتمثل في بيان درجات الوجود للأشياء والحقائق التي تتحدث عنها الآية موضع الخلاف، فيقول: التصديق إنما يتطرق إلى الخبر؛ بل إلى المخبر أيضًا، وحقيقة الاعتراف بوجود ما أخبر به الرسول ﷺ عن وجوده، إلَّا أن الوجود خمسة مراتب، ولأجل الغفلة عن التعرف على مراتب الوجود للصفة التي أخبرت عنها الآية أو الحديث نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب واتهمته بالكفر.

فإن مراتب الوجود التي أخبرت عنا الآية:

١) الوجود الذاتي.
٢) والوجود لحسي.
٣) والوجود الخيالي.
٤) والوجود العقلي.
٥) والوجود الشبهي.

فمن اعترف بوجود ما أخبر به الرسول على درجة من هذه الدرجات الخمس فليس مكذبًا للرسول، ولا يتهم بالكفر.

ثم يشرح الغزالي هذه المراتب للوجود؛ حتى ينزع فتيل الاتهام بالكفر بين الفرق.

(١) **الوجود الذاتي**: فهو وجود الأشياء في ذاتها خارج الحس والعقل كالعلم بوجود السماوات والأرض.

(٢) **الوجود الحسي**: ما يتمثل في القوة الباصرة من العين مما لا وجود له في الخارج، فيكون وجوده قاصرًا على العين الباصرة، كما قال تعالى في حق مريم: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. فإن وجود الملك الذي تمثل لمريم، بحيث لم يره غيرها.

(٣) **الوجود الخيالي**: فهو عبارة عن وجود المحسوسات إذا غابت عن حسك فأنت تستطيع أن تتخيل صورة الفرس والفيل وأنت مغمض العينين.

(٤) **الوجود العقلي**: فهو أن يكون للشيء روح ومعنى حقيقي، فيتلقى العقل روحه ومعناه مجردًا عن صورته الحسية كما يتلقى معنى القوة في اليد الباطشة مثلًا.

(٥) **الوجود الشبهي**: وهو ألَّا يكون للشيء وجود أصلًا لا في الحس ولا في العقل ولا في الخيال، ولكن يوجد شيء يشبهه في خاصة من خواصه وصفة من صفاته، كالعلم بما أخبر به القرآن عما في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويشرح الغزالي بشيء من الاستطراد هذه المراتب الخمسة، ويأتي بأمثلة شارحة من نصوص الكتاب ومن السُّنة، وكلها كانت مثار جدل بين علماء الكلام، فمنهم من قبل النصوص على ظاهرها، ومنهم مَنْ رفض الظاهر وتأولها على مقتضى عقله، ويصرح الغزالي في نهاية حواره مع هؤلاء بقوله: «اعلم أن كل من نزل قولًا من أقوال صاحب الشريعة على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين بها، وإنما التكذيب أن ينفي جميع هذه المعاني، ويزعم أن ما قاله الله ورسوله لا معنى له، وإنما هو كذب محض، وينبَّه الغزالي أنه لا يلزم كفر المؤولين ما داموا

ملتزمين بقانون التأويل، وكيف يلزم الكفر بالتأويل وما من فريق من أهل الإسلام، إلَّا وهو مؤول مضطر إليه، فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل... وقد سمعت من الثقاة من الحنابلة في بغداد أن أحمد بن حنبل رحمه الله صرَّح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط: الأول قوله ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض...» [فيصل التفرقة: ص ١٥٠ – ١٥٨].

ويقارن الغزالي بين حجج الخصوم ويبيّن ما فيها من مظاهر التعصُّب للمذهب والبعد عن نشدان الحقيقة، وكأن كل واحدٍ منهم لا يرضى بما يقوله الخصم ما دام مخالفًا لمذهبه، وهذا هو محض التقليد وعين التعصُّب الذي يعمي عن الحقيقة، ثم يقول: «وكيف ما كان الأمر فلا ينبغي أن يكفر كل فريقٍ خصمه بأن رآه غالطًا في البرهان» [فيصل التفرقة: ص ١٥٩].

ويقول في موضع آخر: «ولا ينبغي أن يكفر بعضهم بعضًا بأن يراه غالطًا فيما يعتقده برهانًا فإن ذلك ليس أمرًا هينًا سهل المدرك [فيصل التفرقة: ص ١٦٠].

ويقول في موضع ثالث: «من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع، ولا ينبغي أن نبادر أيضًا إلى كفره في كل مقام؛ بل ينظر فيه، فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد فلا تكفره [فيصل التفرقة: ص ١٦١].

-٤-

التسامح لا يعني التحلل من أحكام الشريعة

ولا نتوقع من الغزالي أنه في هذا المقام يتسامح في أصول العقيدة، أو يتساهل في النيل منها، أو يتسامح في التحلل من أحكام الشريعة بدعوى التسامح، إنه من أكثر الأئمة حفاظًا على أصول الاعتقاد وأحكام الشريعة؛ لكن القضية التي أزعجته هو تعصب المتطرفين من بعض الفرق للمذهب والرأي حول قضايا يتصل معظمها بالأمور الغيبية التي ليس للعقل فيها مجال للاجتهاد ليقال هذا الرأي قاطع وما عداه خطأ، ولقد حذَّر الغزالي من ادعاء امتلاك الحقيقة عند أي مذهب وما عداه كفر وزندقة ووضع مراتب الوجود الخمس التي أشرنا إليها سابقًا؛ ليجعل فيها متسعًا للتسامح في القبول لكل الآراء التي وصل إليها كل مجتهد ما دام بذل الوسع والطاقة في اجتهاده، وليس من حقه بعد ذلك أن يدعي أنه وحده يمتلك الحقيقة وأن ما عداه

خارج عن الملة، فمهما حصل من خلاف بين الفرق يحذرهم الغزالي من تبادل تهمة التكفير، ويقول لهم: فالتوقف عن التكفير أولى، والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل والتعصب [فيصل التفرقة: ص ١٦٨].

ويصرح الغزالي بأن أشد الناس غلوًا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لا يعرف الكلام ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حررناها فهو كافر. فهؤلاء ضيقوا رحة الله الواسعة أولًا، وجعلوا الجنة وقفًا على شرذمة يسيرة من المتكلمين [فيصل التفرقة: ص ١٧١].

ومعلوم عند الغزالي أن الأدلة المحررة على رسم المتكلمين تشعر المستمع لها بالصنعة الجدلية التي ترسخ في النفوس روح المعاندة والنفور بدلًا أن تبعث في النفس الرضا بالتسامح والقبول، ولا نجد معتزليًّا ترك اعتزاله أو هجر مذهبه لقناعته بدليل الأشاعرة ولا نجد أشعريًّا ترك مذهبه لقناعته بدليل المعتزلة وإنما كانت المعاندة بالمجادلة اللفظية هي سيدة الموقف بين المتناظرين منهم؛ ولذلك يصرح الغزالي لهؤلاء وأولئك بالحقيقة التي توصَّل إليها أن الإيمان المؤسس على أدلة المتعصبين من المتكلمين إيمان هش لا يصمد أمام البرهان، ثم يقول: «وإذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرَّحنا بأن الخوض في الكلام حرام لكثرة الآفة فيه إلَّا لشخصين: رجل وقعت له شبهة لا تزول إلا بذلك الكلام، ورجل كامل العقل راسخ القدم في الدين ثابت الإيمان بأنوار اليقين [فيصل التفرقة: ص ١٧٣ – ١٧٤]، أما العوام فيحرم التصريح لهم بهذه المسائل؛ لأن الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدًّا مشرف على الزوال بكل شبهة [فيصل التفرقة: ص ١٧٤].

ويؤكد الغزالي أن رحمة الله واسعة تتسع لتشمل هؤلاء وهؤلاء ما داموا مخلصين في اجتهادهم طلبًا للحقيقة وليس للولاء للمذهب أو التعصُّب للرأي، ويأتي بكثير من الأخبار والآثار التي تبشر بأن رحمة الله تشمل كل من كان مؤمنًا: بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله، مؤمنًا بالبعث؛ لأن الله تعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلماذا يصر المتعصبون على أن يضيقوا على المسلمين ما وسعه الله، وأن يجعلوا رحمة الله وقفًا عليهم دون غيرهم، ورحمة الله تتسع لتشمل كثيرًا من الأمم السابقة [فيصل التفرقة: ص ١٧٦].

ويخرج الغزالي من معركته مع هؤلاء الغلاة بعلاج لمشكلة التعصُّب التي شاعت في مؤلَّفاتهم، وكانت سببًا في ظاهرة التعصب ورفض الآخر، نراه يدعو إلى تحريم الجدل والمناظرات التي لا عمل من ورائها [فيصل التفرقة: ص ١٧٣] خاصة فيما يتعلق بالأمور الإلهية التي لا مجال للعقل فيها إذا جرد نفسه عن نور الوحي، وينصح بعدم الاغترار بدعوى معرفة الحقيقة على سبيل الكنه أو الماهية أو دعوى احتكارها فإن حظيرة القدس أعلى أن تنالها عقول العارفين فما بالك بمن شيمته الجدل والمناظرة لطلب الغلبة والنصرة وليس للوصول إلى الحقيقة.

ثم يرسم منهجًا لعلاج التعصب والتخلق بالتسامح مع المخالف له في الرأي:

(١) فيدعو بعد ذلك إلى حسن الظن بالمخالف في الرأي؛ لأن سوء الظن بالمؤمن حرام كسوء الفعل تمامًا، ومعلوم أن بعض الظن إثم على الإطلاق، فما بالك بسوء الظن بعالم مسلم مجتهد، فإن ذلك أكثر خطرًا وأعظم ضررًا.

(٢) وأن يتسلح المتكلم بسلاح العفو وروح التسامح؛ لأن قضايا الألوهية أعز من أن ينالها عقل بشر، ولا خير في جدل يثير الشبهات حول قضايا، لا تصل فيها إلى الحقيقة، وقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم.

(٣) والأولى من ذلك السكوت والكف والنهي عن الجدل، وأن نسلك مسلك السلف في التفويض، كما مضى على ذلك جيل الصحابة والتابعين، ونعلم أن البحث والتفتيش في هذه المسائل بدعة، وكل بدعة مذمومة، وإذا كانت البدعة مذمومة، فإن نقيضها هو السُّنة، والسُّنة محمودة، ونحن مأمورون بها، ولا يمكن النزاع في ذلك.

(٤) عدم ادعاء احتكار الحقيقة.

(٥) الحذر من تكفير أهل القبلة.

(٦) لو كان الأمر يحتمل التكفير من تسعة وتسعين وجهًا، ويحتمل الإيمان من وجهٍ واحد غلبنا وجه الإيمان لسعة رحمة الله لكل من هؤلاء. [إلجام العوم عن علم الكلام: ص ٢٧٤ مجموعة القصور العوالي].

وإذا عجز المرء عن هداية هؤلاء المتعصبين فإن الغزالي يشفق عليهم، ويدعو بعد ذلك إلى تجنبهم وعدم مخالطتهم؛ لأن في ذلك إعانة لهم على شيوع بدعتهم وانتشار آرائهم المتطرفة، ويجب إبعاد العوام عنهم تمامًا؛ حتى لا تتلوث عقولهم بهذه البدع المذمومة، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠] [إلجام العوام: ص ٢٧٥] والهجر الجميل هو هجر بلا عتاب.

والذي لا تقنعه أدلة القرآن في القضايا مثارات الجدل بين المتناظرين فإنه فاسد الفطرة مريض يحتاج إلى علاج بما يناسب حاله، فإن كان من أصحاب الجدل واللجاج، وكان التعصب غالبًا على أمره لم نجادله وصرفناه إلى حاله، وندعو له بالهداية، وإن كان ذو فراسة ورشد، ويسأل؛ ليعرف الحق من الباطل تجتهد معه ونجادله بالتي هي أحسن، كما أمرنا الله، ولا نبخسه حقَّه في المعرفة، وهو كالمريض الذي يستعمل معه الدواء بقدر وحذر، والفطرة السلمية معدة في أصلها لقبول الحق والرضى به دون عناء ولا مجادلة. والطبيب الماهر يستعمل الدواء المناسب للمريض بحيث لا يجلب له ضررًا ولا يمنع نفعًا، وهذا لا يكون إلَّا بأن يوضع كل شيء في موضعه اللائق به في حوارك مع المخالف [إلجام العوام: ص ٣٠١].

-٥-

التسامح ضرورة اجتماعية

يشير الغزالي في حديثه عن التسامح إلى أن الاجتماع البشري لا يستقيم أمره إلَّا إذا تحلى الناس بخلق التسامح؛ ذلك أن الناس مختلفون في طباعهم وثقافاتهم وأديانهم وميولهم الشخصية، وهذا في ذاته سُنة من سُنن الله الكونية، وآية من آيات الله. قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، ومن لوازم هذا الاختلاف والتنوع تعاند المصالح وتشابكها أحيانًا وتعارضها أحيانًا، ومحاولة كل فرد البحث والحصول على ما يريده والفوز به وهنا تتضارب المصالح وينشأ الخلاف الذي يقود إلى الأثرة بدلًا من التسامح، وينبه الغزالي إلى خطورة هذه الظاهرة وأثرها السيء على المجتمع ما لم ينبه العلماء والمربون وأولو الأمر إلى ضرورة العمل على تربية الأفراد

على خلق التسامح والعفو والصفح والمحبة والتراحم، وأن يبذل الدعاة والمربون جهدهم في تربية الأفراد على خلق التسامح، وأن يقتدوا في ذلك بسيرة الرسول ﷺ، فينطقوا بالتي هي أحسن، ويبتعدوا عن القول الغليظ المنفر ترقيقًا للقلوب، وتأليفًا للنفوس، كما كان يفعل ﷺ حين طلب منه بعض الصحابة أن يأذن له في الزنا، فقال: يا نبي الله تأذن لي في الزنا، فصاح الناس به فقال النبي ﷺ: قربوه أدن فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي ﷺ: أتحبه لأمك؟ فقال: لا جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟ قال: لا جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟ قال: لا... إلخ» [شعب الإيمان: ٢٩٥/٧ ح ٥٠٣٢]، فكان مواقف الرسول مربيًّا ومعلمًا أكثر منه ناقدًا وموبخًا. وهكذا يجب أن يفعل الدعاة [الإحياء: ١٥١/٤].

ويضع الغزالي عناوين خاصة للحديث عن العفو والصفح وأثرهما في النفوس محبة وتراحمًا بين الناس، والقرآن الكريم قد أرشدنا إلى أن عفو الله سبحانه يتحقق إذا عفوت أنت عمن أساء إليك، ويسوق الغزالي قصة أبي بكر مع مسطح في حادثة الإفك، حين آلى أبو بكر رضي الله عنه ألا ينفق على مسطح، ولا يعطيه من ماله أبدًا بعد أن تكلَّم مسطح في حق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (حادثة الإفك) فينزل القرآن الكريم ليأمر أبا بكر بالعفو، فيقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فجعل عفو الله سبحانه وتعالى معلقًا بعفو أبي بكر عن مسطح، ويكفي أبا بكر أن يعفو الله عنه، ويفيض الغزالي بالقول وذكر الأمثلة والقصص من الكتب السابقة في فضل خلق التسامح وأثره في خلق الألفة والمودة والترابط في المجتمع.

-٦-

التسامح أمر إلهي في الأديان السماوية

ويشير الغزالي في هذا الصدد إلى أمر مهم جدًّا وهو أن خلق التسامح قد نزلت به الأديان السماوية الثلاثة، فدعا إليه موسى في الوصايا العشر في التوراة، ودعا إليه عيسى في موعظة الجبل وفي الإنجيل مما يشير إلى أن هذا الخلق من المقاصد الكلية للوحي السماوي في الأديان الثلاثة. [الإحياء: ص ٩٢٨ – ٩٣٠].

وجسد القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣] فقدَّم المغفرة على العقاب إيذانًا بفتح أبواب التوبة والتسامح بين الله وعباده، وفتح باب التسامح والمحبة والتراحم بين الناس.

ويحرص الغزالي على ذكر الكثير من المواعظ والأمثلة الواقعية من الكتب السابقة عن موسى وعيسى والحواريين وأثر هذا الخلق في النفوس تأليفًا للقلوب ونشر المحبة بين الناس.

ويأتي القرآن الكريم مصدقًا لما سبقه من التوراة والإنجيل في ذلك؛ ليؤكد بهذا قول الرسول ﷺ: «إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق» [مسند البزار: ١٥/٣٦٤ ح ٨٩٤٩]، ويتحقق في المجتمع المعنى القرآني والمقصد الشرعي، وهو مبدأ «التعارف» باعتباره مدخلًا للتعايش السلمي بين أفراد المجتمع.

وجاء ذلك في القرآن في صيغة العموم والإطلاق؛ ليخاطب الناس جميعًا على اختلاف أديانهم وأجناسهم وثقافاتهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وصيغة التفاعل «لتعارفوا» دالة بظاهرها على الكثرة المخاطبة بهذا الأمر الإلهي بصرف النظر عن اختلاف أديانها لعموم الخطاب بلفظ «الناس»؛ ذلك لأن التعارف هو المفتاح الطبيعي للتعايش وضرورة من ضروراته فهو من (كليات الوحي السماوي)

في الأديان الثلاثة أن يتعارفوا من أجل أن يتعايشوا في سلام، ومن لوازم التعايش السلمي أن (يتسامحوا ويتراحموا، ويعفوا، ويصفحوا... إلخ)؛ ولذلك جاءت وصايا الوحي السماوي في الأديان الثلاثة بهذه الأخلاقيات كشعار ديني للتعايش السلمي بين الناس، وبدون ذلك لا تستقيم حياة الناس.

ويورد الغزالي العديد من الأمثلة والوصايا والإسرائيليات التي تحثُّ على التسامح والعفو والصفح؛ ليدل بذلك على أن منطق الأديان واحد في المبدأ الأخلاقي الذي جاء به الرسول ﷺ متممًا لمكارمه. [انظر: الإحياء: ص ٩٢٨-٩٢٩].

ومن المفيد في هذا المقام أن ننبه إلى أمرين مهمين أرشد إليهما الغزالي في سبيل التخلق بخلق التسامح ومشتقاته من العفو والصفح والتراحم... إلخ.

الأمر الأول: أن الغزالي ينبه إلى ضرورة اقتران الجانب الظاهري من هذه السلوكيات بالجانب الباطني القلبي منها، ولا يكون التسامح أو العفو والصفح محمودًا ولا مقبولًا عند الله إلَّا إذا كان نابعًا عن يقين القلب بأنه عبادة وقربى إلى الله محبة له وإخلاصًا وتعبُّدًا له وطلبًا للأجر منه بديلًا عن طلب الأجر من الناس إيمانًا وامتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشوري: ٤٠] وإيمانًا منه بأن ما عند الله خير وأبقى، وإذا لم يكن التخلق بهذه القيم نابعًا من اليقين القلبي والإخلاص لله كان رياء ونفاقًا وطلبًا لما عند الناس. ولا ثواب له عند الله. وهذا أمر مهم جدًّا في الموقف التربوي الذي تبناه الغزالي في «الإحياء» حين يتكلم عن الإخلاص والمحبة في مكارم الأخلاق فيكون سلوك الطريق إلى الله مستقيمًا خاليًا من زلات النفس طهورًا من شهوات الشهرة وصحيحًا من مرض النفاق، وليكون خالصًا لوجه الله.

الأمر الثاني: ألا يكتفي المرء بمجرد سماع هذه القيم الأخلاقية للعلم بها فقط ليقال: إنه عالم؛ بل من الضروري أن يتحول العلم بها إلى عمل، ويترجم إلى سلوك اجتماعي يحكم علاقات الأفراد بعضهم ببعض حتى يشيع السلام بين أفراد المجتمع، وحتى لا يكون العلم حجة عليه أمام الله يوم القيامة، ولقد أشار الغزالي إلى خطورة هذه القضية في الكثير من مؤلفاته؛ حتى صارت معلمًا من معالم منهجه التربوي.

ويتناول الغزالي هذه القيم في العديد من مؤلَّفاته بين الإيجاز تارة والإطناب تارة أخرى حسب المقام الذي يتحدث عنه، وأحيانًا ثالثة يفرد لها فصولًا مستقلة في مقام التربية والتعليم وتمهيد الطريق للسالكين إلى الله، ويسوق في حديثه عنها العديد من الأمثلة والنماذج من التوراة والإنجيل ومن سير الصالحين وأقطاب التصوف موقنًا بأن الحقيقة التي توصَّل إليها بعد أن عاش حياة الكشف هي أن المعرفة الحقيقية بالوجود ومقاصده الكلية تتلخص في المعرفة على قدر الطاقة، واستيعاب معايب الناس على قدر الطاقة تخلُّقًا بأخلاق الله في استيعابه لمعايب العباد بالصفح والعفو والمغفرة. وعلى قدر تسامحنا مع عباد الله يكون تسامح الله معنا، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ [النور: ٢٢].

وهذه المعالم تمثل أمورًا كلية في المنهج التربوي عند الغزالي خلال حديثه عن التسامح وإشاعته بين عباد الله المؤمن منهم وغير المؤمن، الموافق في الرأي والمخالف له؛ لأن شعاره العام هو (التسامح) في كل مستويات العلاقات الاجتماعية، ومن المهم أن نتناول هذه المستويات بشيء من الإيجاز في جوانبه التطبيقية عند الغزالي.

-٧-

أثر بناء الأسرة على التسامح

(١) يؤمن الغزالي أن بناء الأسرة المسلمة على أساس صحيح من المعايب هو الطريق الأمثل إلى بناء مجتمع صحيح سليم؛ لأن الأسرة هي مصنع الرجال؛ ولذلك حرص الغزالي على أن يسود الحب والإيثار والتسامح، ويظلل الأسرة المسلمة، ويتحمل الرجل الحظ الأوفر في شيوع هذا الجو من التسامح والحب عملًا بقول الرسول ﷺ في خطبة الوداع: «استوصوا بالنساء خيرًا» [صحيح البخاري: ٢٦/٧ ح ٥١٨٦]، وقوله: «ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلَّا لئيم» [الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين لابن عساكر: ص ١٠٩ ح ٣٩]، ويأتي في [الإحياء: ص٥٨-٥٩] بنصيحة رجل لزوجته بالعفو والتسامح، فيقول:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

ولا تنقريني نقرك الدف مرة فإنك لا تدرين كيف المغيَّب
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى ويأباك قلبي والقلوب تقلَّب
فإني رأيت الحب في القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

[بحر الطويل]

وفي هذا الجو تنشأ الناشئة على خلق التسامح والتراحم وليس الغضب والتشاحن.

إن بناء الأسرة الصالحة عند الغزالي يقوم على التسامح والتجمل بالصبر على تحمل المسئولية دون شكاية أو ضجر، والتسلح لهذه المهمة بحسن الخلق الذي يولد حسن المعاشرة، وهذا يستلزم التسلح بتحمل الأذى والصبر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وكانت وصاية الرسول ﷺ في خطبة الوداع بحسن معاشرة الزوجة والإحسان إليها والتسامح معها، وليس ذلك حاصلًا بحسن معاملتها فقط؛ بل بتحمُّل أذاها والصبر عليه، ويورد الغزالي أثرًا عن الرسول ﷺ يأمر بذلك، فقال ﷺ: «من صبر على امرأته أعطاه الله من الأجر ما أعطى أيوب على بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله ثوابًا مثل ثواب آسيا امرأة فرعون [الإحياء: ٧٢١]، وقال المحقق: لم أقف على أصله.

ويورد الغزالي أمثلة كثيرة من حياة الرسول والصحابة تبين حرصهم الشديد على إشاعة روح التسامح ونشر المحبة في البيوت؛ ليتربى عليها الطفل صغيرًا، وتصير عادة له. كما قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

[بحر الوافر]

ومما يساعد على شيوخ روح التسامح ونشر المحبة في الأسرة أن يبادر الطرفان بالمداعبة والمرح والملاعبة فإنها تطيب الخاطر وتزيد المرأة حبًّا للبيت ومن في البيت، فقد كان ﷺ يداعب نساءه، ويسابق عائشة، وكان من وصاياه ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله» [الإحياء: ص ٧٢٣]، ويستطرد الغزالي في

ذكر الحقوق المتبادلة بين الزوجين التي تؤسس لحياة كريمة يسودها التسامح والإيثار كمنهج تربوي لبناء المجتمع على هذا الخلق، فإن الأسرة التي يتربَّى فيها الأبناء على خلق التسامح والمحبة هي نواة لمجتمع فاضل يسوده السلام الاجتماعي، ويتحقق فيه المقصد الأسنى الذي أشار إليه الغزالي في خاتمة كتابه كأثر من آثار التخلق بأخلاق الله.

أثر التسامح في بناء المجتمع:

يعقد الغزالي بابًا في الإحياء [ص٩٢٤-٩٨٥] عن فضيلة الألفة والأخوة والمحبة بين الناس، بيَّن فيه أن التسامح ثمرة من ثمرات حسن الخلق التي يتولد عنها حسن الأفعال وطيب العلاقات بين الناس، ويؤسس الغزالي قاعدة مهمة يبني عليها منهجه في تربية المجتمع على خلق التسامح ونشر المحبة بين الناس، فيقول: إن حب الله إذا قوي أثمر حب كل من يقوم بعبادة الله في علم أو عمل، وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله وعند الناس من خلق حسن وتأدب بآداب الشرع [الإحياء: ص ٩٣٨]، ويضيف: وبحسب ضعف قوة حبه لله أو قوته يكون حبه للناس أو عدم ذلك، والباب الواسع الذي يدخل منه المرء للتخلق بذلك محاولته التخلق بأخلاق الله من المحبة والعفو والإحسان والرحمة، فإن هذه الصفات هي مفاتيح الألفة والتآلف بين الناس، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وخلق التسامح يمثل في مؤلفات الغزالي برنامجًا للسلوك وقانونًا ضابطًا للعلاقات الاجتماعية بين الناس على اختلاف أديانهم وتضاريس ثقافتهم ومذاهبهم؛ لأن المجتمعات الإنسانية أصبحت مركبة ومعقدة لاختلاط الثقافات وتمازجها وتشابك المصالح وتعارضها، وتنوع المشارب والأهواء، ولا صلاح لأحوال الناس واستقرار أمورهم إلا بالتخلق والتحلي بروح التسامح في تعاملاتهم على كل المستويات الاقتصادية والثقافية والدينية والاجتماعية على سواء، ولقد عقد الغزالي في كتابه الإحياء أبوابًا كاملة وفصولًا شارحًا فيها الأخلاقيات التي يجب أن تسود فيها العلاقات الاجتماعية تحت مظلة التسامح ونشر المحبة بين كل الطبقات، فتكلَّم عن

أخلاقيات الجوار والحقوق المتبادلة بين الجيران، المسلم منهم وغير المسلم، أقول حقوق وليست مكرمات، هي حقوق واجبة الأداء [الإحياء: باب فضيلة الألفة والأخوة: ص ٦٢٤- ٩٨٥].

وتكلم عن حقوق الأخوة والصحبة والصداقة بين المسلمين وغير المسلمين، وبيَّن أن العلاقة بينهم تقوم على التسامح فهما كاليدين توضئ إحداهما الأخرى، ولا غنى لإحداهما عن الأخرى، ويضع الغزالي مراتب ثلاثة لتحقيق معنى التسامح بين الناس:

(١) **أدناها**: أن تعامل الغير معاملة خادمك الذي تقضي حقه قبل أن يطلبها منك؛ لأنك مسئول عنه؛ لأن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

(٢) **أوسطها**: أن تنزل الغير منزلة نفسك في قضاء حاجتك؛ لأن ذلك من دلائل كمال الإيمان، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [صحيح البخاري: ١/ ١٢ ح١٣].

(٣) **أعلاها**: درجة الإيثار بأن تؤثره على نفسك. وهي درجة الصديقيين، ومنتهى درجة المحبين والمتحابين [الإحياء: ص ٩٥٢].

فإذا لم تجد نفسك في منزلة من هذه المنازل الثلاثة فلست بذي نفس سمحة، ولم ينعقد في قلبك معنى الأخوة، وإنما هي مخالطة ظاهرة لا رصيد لها في القلب، وهي إلى الرياء أقرب [الإحياء: ص ٥٩٣].

مسئولية العالِم والمربِّي:

وينبه الغزالي إلى أن سيادة روح التسامح بين أفراد المجتمع مسئولية مشتركة، يتعاون الجميع على القيام بها، ويكاد الغزالي أن يجعلها في مرتبة الفروض الدينية؛ لأن استقامة الأحوال الاجتماعية لا تتم إلَّا بذلك، وتقع المسئولية الكبرى في هذا الصدد على العلماء والمربين، فإن الواحد منهم يحمل في عنقه أمانة تبليغ ميراث النبوة من الأقوال والأفعال والأحوال، وفي مقدمة ذلك كله تبليغ أخلاقيات الرسول ﷺ وسلوكياته العملية التي تحمل معالم المنهج التربوي والتخلُّق بأخلاق الله وآداب النبوة، وفضيلة التسامح ثمرة من ثمرات حسن الخلق التي نبَّه إليها الشارع، فهي تبعث على الألفة والأخوة ونشر روح المحبة، يقول الغزالي: اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق،

والتفرُّق ثمرة سوء الخلق، وحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يجلب التباغض والتحاسد والتدابر.. ومهما كان المثمر محمودًا كانت الثمرة محمودة، وحسن الخلق لا يخفى في الدين فضله، وهو الذي مدح الله به رسوله الكريم ﷺ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وأكثر ما يدخل الناس الجنة حسن الخلق بعد تقوى الله.

وروح التسامح تبعث الألفة وتقطع الوحشة، وارتباط السلوك بروح التسامح دليل على محبة الله للعبد، فإن الله يحب العبد الهين اللين المتسامح الودود؛ لأن ذلك كله مفاتيح الألفة بين القلوب، قال تعالى مظهرًا نعمته على العبد في ذلك: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، أي بالألفة والمحبة التي هي ثمرة التسامح، وقال ﷺ: «إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الإخوان» [المعجم الأوسط: ٣٥٠/٧]،[الإحياء: ص ٩٢٩].

ومن ثمرات التسامح وشيوعه في المجتمع أن يستظل الأفراد بروح التحاب في الله لا لغرض دنيوي، وتلك درجة عليا لا يرقى إليها إلَّا أصحاب الهمم العالية. ولقد ركَّز الغزالي على أهمية انتشار هذه الروح بين الناس.

فإن حب الإنسان للإنسان مقصد شرعي بصرف النظر عن دينه وعرقه؛ لأنه مخلوق بيد الله، ولا يجعل الغزالي اختلاف الدين مانعًا أو حائلًا دون محبة الإنسان لذاته بصرف النظر عن دينه وعرقه، وكل مخلوق لله فهو جميل، وكل جميل محبوب للنفس فما بالك بالإنسان إذا كمل عقله وحسن خلقه، فإنه يتبعه بالضرورة حسن عمله، ويشير الغزالي هنا إلى جانب نفسي له أثره في جلب الألفة والمحبة والتسامح، فيقول: «بل في ائتلاف القلوب أمر أغمض من هذا. فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحة في صورة ولا حسن في خلقه... ولكن لمناسبة باطنه — لا يعلمها إلَّا الله – توجب الألفة والموافقة، فإن شبيه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة لا يعلمها إلَّا الله، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع

عليها. عبر عنها الرسول ﷺ في قوله: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» [صحيح مسلم: ٢٠٣١/٤ ح ٢٦٣٨] ومفتاح هذا التلاقي الروحي هو التعارف الذي هو ثمرة التسامح.

ويؤكد الغزالي على أن الإنسان جدير بأن يُحَبَّ لذاته بصرف النظر عن العوارض الدنيوية من مالٍ أو جاهٍ أو... أو... إلخ، يقول الغزالي: ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله إلَّا أنه من اتصل به مرض مذموم صار مذمومًا. [الإحياء: ص ٩٣٣ – ٩٣٤].

ويستطرد الغزالي في بيان كيف تكون الألفة والمحبة مدخلًا واسعًا للحب في الله ودرجات المحبين ومنازلهم عند الله يوم القيامة.

-٨-

مظاهر التسامح على مستوى العلاقات الشخصية (حقوق وواجبات)

بعد أن بيَّن الغزالي أهمية التسامح في بناء جسور الألفة والمحبة في المجتمع، وأنها مسئولية العلماء والمربين أخذ يتحدث عن آثار ومظاهر التسامح في العلاقات الشخصية على مستوى الفرد، وبيَّن أن العلاقات الشخصية بين الإنسان والإنسان تشبه العقود المبرمة بين متعاقدين، فلها حقوق واجبة الأداء شأن كل عقد مبرم بين طرفين، وكلمة حقوق هنا مقصودة لذاتها في منهج الغزالي التربوي، فإن الحق واجب الأداء، ويترتب على عدم الوفاء به أمران:

(١) نقص في مراتب الإيمان.

(٢) الإثم إذا قصَّر في الأداء وتوفَّرت شروط التأثيم من القصد والنيَّة كما نصَّ على ذلك الفقهاء، وأشارت إليه الأحاديث النبوية.

ولقد أشارت أحاديث الرسول ﷺ إلى هذه الحقوق، وبيَّنت أثرها في البناء الاجتماعي وصلابته، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ويفصل الغزالي هذه المعاني، ويشرح مراتبها التي تدل على كمال الإيمان، فيقول: اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كرابطة عقد النكاح بين الزوجين... وكما يقتضي النكاح حقوقًا يجب الوفاء بها قيامًا بحق النكاح... فكذلك عقد الأخوة، فلأخيك عليك حق في المال والنفس واللسان والقلب بالعفو والدعاء

والإخلاص والوفاء بالعهد والتخفيف في التكلف والتكليف؛ **وذلك يجمعه ثمانية حقوق كلها تمثل مظاهر للتسامح وسماحة النفس:**

(١) منها حقّ في المال:

بأن تمد يدك – عن سماحة نفس– لأخيك المحتاج فتسد حاجته، فإن الرسول ﷺ يقول: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» [سنن أبي داود: ٣٠٢/٧ ح٤٩٤٦] مثل الأخوين كاليدين توضئ إحداهما الأخرى، والتسامح بالمال على مراتب:

(١) أن تنزل أخاك المحتاج منزلة خادمك، فأنت مسئول عن قضاء حاجته وسد جوعته ما دام في خدمتك.

(٢) وأرقى من ذلك أن تنزله منزلة نفسك، وترضى مشاركته إياك في مالك، قال الحسن: كان أحدهما يشقُّ إزاره بينه وبين أخيه.

(٣) أن تؤثره على نفسك فتقدم حاجته على حاجتك، وهذه مرتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين، يقول الغزالي: فإن لم تجد نفسك في مرتبة من هذه الرتب فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن... وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين، والمرتبة الدنيا ليست مرضية عند ذوي الدين... وأما المرتبة العليا فهي التي وصفها الله بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، أي كانوا خلطاء في أموالهم لا يميز رحل أحدهم عن رحل الآخر، قال علي بن الحسن لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كيس أخيه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان. [الإحياء: ٩٥٣].

وهذه المرتبة من الحقوق تمثل قمة التسامح؛ لأن المال صنو النفس، والنفس من طبعها الشح بالمال؛ ولذلك حذرنا الله منها في القرآن الكريم، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، فالجود بالمال والسخاء عن طيب نفس من علامات كمال الإيمان، وهي من أعلى مظاهر التسامح.

(٢) ومنها الجود بالنفس في قضاء حاجة أخيك:

بأن تسمح نفسك أن تتولى أنت بشخصك قضاء حاجته، فتسمح باتفاق جهدك ووقتك وفكرك لقضاء مصالح أخيك، مع البشاشة والاستبشار والفرح والإحساس بالسعادة وأنت تقضي حاجته دون إظهار للمنة أو التفضل أو انتظار شكر منه أو عطية، يستوي في ذلك أن يكون الذي تقضي حاجته صديقًا لك أو عدو، وأن تراعي أوقات حاجته كما تراعي حاجته لنفسك وتغنيه عن السؤال بالمسارعة إليه قبل أن يطلب منك حاجته، فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، وينبغي أن يكون مقصدك في ذلك مرضاة الله وليس طلب السمعة أو الجاه والشهرة فإن ما عند الله خير وأبقى. [الإحياء: ٩٥٥-٩٥٧].

(٣) ومنها كف اللسان عن ذكر عيوب أخيك:

يعتبر الغزالي أن اللسان يتعلق به حقان للمسلم على أخيه:

الأول: هو كف اللسان عن ذكر أخيه بما يكره في حضوره أو في غيبته على سواء، فلا يماريه ولا يجادله بالفاحش من القول، ويسكت عن الرد عليه إذا بدأه، ولا يتجسس بالسؤال عن عيوبه والتعرف على أسراره التي يكتمها عنه، وإذا أفضى إليه ببعض أسراره فيكتمها ولا يبثها غيره البتة، ولا إلى أخص أصدقائه ولا أهل بيته، ولا يكشف شيئًا منها لغيره حتى ولو حدث بينهما قطيعة ووحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الطوية وسوء الخلق، ولا ينقل إليه قدح غيره فيه، فإن الذي يسبُّك هو من بلَّغك. والأولى أن ينقل إليه ثناء الناس عليه وذكرهم لمحاسنه، فإن ذلك يسره ويفرحه، وليعلم أن ذكر المساوئ له أو لأهله غيبة محرمة في كل حق مسلم. ولتعلم أن عيوب نفسك أولى بالرعاية والاهتمام أكثر من رعايتك لعيوب غيرك، وأنك لو طلبت إنسانًا منزهًا من العيوب فقد طلبت المستحيل، ولن تجد من تصاحبه، فما من أحد من الناس إلَّا وله محاسن ومساوئ، وصاحب النفس السمحة هو من يذكر دائمًا محاسن أخيه ويتغاضى عن مساوئه، والمؤمن يتلمس المعاذير ويطلبها لأخيه، والمنافق يطلب المساوئ ويذكر لغيره العثرات، والرسول ﷺ يقول: «استعيذوا بالله من جار السوء، الذي إن رأى خيرًا ستره، وإن رأى شرًّا أظهره» [التاريخ الكبير للبخاري، ح ٣٠٩٦ بلفظ: «تَعَوَّذُوا من ثلاث الفَواقِر: من مجاورة جار السَّوءِ، إن رأى خيرًا دفنه، وإن رأى شرًّا أذاعه»].

وكما يجب عليك السكوت عن ذكر مساوئه باللسان يجب عليك كف القلب عن سوء الظن به، فسوء الظن غيبة قلبية، وهي محرمة كسوء القول وسوء الفعل، ومن سماحة النفس أن تحمل أقواله وأفعاله على أحسن الأحوال ما أمكن ذلك، وأن انكشف لك شيء من ذلك فاحمله على سهو اللسان وزلاته كلما أمكن ذلك؛ حتى تقى نفسك مغبة سوء الظن بأخيك المسلم؛ لأن ذلك محرم بين المؤمنين؛ لأن سوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس وتتبع العورات، قال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» [صحيح مسلم: ١٩٨٥/١ ح٢٥٦٣].

وستر العيوب وتجاهلها والتغافل عنها شيمة أهل الدين، واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه. [الإحياء: ص ٩٥٩- ٩٦٠].

وكما تحب ستر عيوبك عن الناس يجب عليك ستر عيوب أخيك؛ وذلك من شيم الكرام، قال الشاعر:

وترى الكريم إذا تصرَّم وصله يخفي القبيح ويظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تقضَّى وصله يخفي الجميل ويظهر البهتانا

[بحر الكامل]

أما النوع الثاني: من حقوق اللسان للمسلم فهو أن يبادر بالحديث بما يحبه، وكما وجب السكوت عن المكاره والعيوب وجبت المبادرة بذكر المحاسن والمحامد، فهذا ادعى للمحبة والمودة وترقيق القلوب، فيتودد إليه بما يحب من الأقوال والأفعال من غير نفاق، فيظهر له أنه يكره ما يسوءه، ويحب ما يسره، وقد قال عليه السلام: «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره وليقل له: إني أحبك» [مسند الإمام أحمد: ح ١٧١٧١]، وإذا عرف أنك تحبه زاد حبه لك، وقربه من قلبك، فإن للقلوب مفاتيح ومفتاحها الكلمة الطيبة، ولهذا كانت الكلمة الطيبة صدقة يتصدق بها المؤمن على أخيه، ومن ذلك أن تدعوه بأحب الأسماء إليه في حضوره وفي غيبته، وأن تثني عليه في غيبته أمام من يحبون الثناء عليه فإن ذلك ادعى للمحبة والمودة، وأن تدفع عنه غيبته إذا ذكره أحد بسوء أمامك كما تحب منه أن يدفع غيبتك إذا ذكرك أحد بسوء أمامه، فإن ذلك

من حقوق الأخوة ومظهر السماحة بين الأخوين، وكذلك حقه عليك في النصح عند حلول الأمور وتداخلها، ولا تكتم عنه أمرًا تراه يجلب له نفعًا أو يدفع عنه ضرًّا. [الإحياء: ص ٩٦٨ – ٩٦٩].

(٤) ومنها العفو عن الزلات والهفوات:

فإن حياة الإنسان لا تخلو من الزلات مهما كان حريصًا إلَّا من عصمه الله من ذلك، وزلات الصديق قد تكون دينية كأن يرتكب معصية أو يترك واجبًا دينيًّا، وهنا يجب التلطف معه والرفق وعدم الغلظة في مراجعته ومناصحته؛ حتى يعود إلى صلاح حاله. ولا تجوز مقاطعته؛ بل ينصح المرة بعد المرة، ويدعو له بالهداية والتوبة؛ فإن ذلك من حق المسلم على المسلم.

وإن كانت الزلة تتعلق بك وبأحوالك فإن باب العفو أوسع ومحاولة تنزيل زلاته على أحسن المحامل أولى وأحق، وقبول الاعتذار منه أحق؛ بل ينبغي أن تستنبط لزلات أخيك سبعين عذرًا، فإن لم يقبله منك فرُدّ اللوم على نفسك فأنت المعيب لا أخاك، فإن حق المسلم على المسلم أن يحتمل منه ثلاثًا:

(١) ظلم الغضب.

(٢) ظلم الدالة.

(٣) ظلم الهفوة. [الإحياء: ص ٩٧٣].

ولقد مدح القرآن الكريم سماحة النفس التي تكظم غيظها عند الغضب، قال تعالى في حق أصحاب الجنة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، وقال سبحانه: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ولا شك أن العفو عن زلات المسلم طلبًا للأجر من الله أحسن وأعظم من شهوة الانتقام، والصبر على تحمُّل زلات الصديق وهفواته له أجره عند الله حتى وإن تكررت الزلات، قال

تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠]، ولا شك أن تكرار الهفوات تحمل الإنسان على الغضب، وهذا أمر طُبعت عليه نفوس بني آدم، ولكن ضبط النفس في حالة الغضب هو خلق المؤمن. ولذلك كان من وصايا الرسول ﷺ: «لا تغضب» كررها ثلاثًا [صحيح البخاري: ٢٨/٨ ح ٦١١٦]، وقال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [صحيح البخاري: ٢٨/٨ ح ٦١١٤]، ومهما اعتذر أخوك كاذبًا كان أو صادقًا فاقبل منه اعتذاره واعف عنه فإن الله تعالى طلب من أبي بكر أن يعفو عن مسطح إذا كان يرجو عفو ربه عنه، قال تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٢٢]، فجعل سبحانه وتعالى عفو أبي بكر عن مسطح من خلال عفو الله عنه.

قال الشاعر:

خذ من خليلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر

فالعمر أقصرُ من معا تبة الخليل على الغير

[من مجزوء الكامل]

(٥) ومنها الدعاء للمسلم:

من حق أخيك عليك أن تدعو له في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه وبكل ما تحبه أنت لنفسك ولأهلك، فإن دعاءك لأخيك هو دعاء لنفسك على التحقيق كما قال الغزالي. [الإحياء: ص ٩٧٤]، فقد قال ﷺ: «إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب أو عن ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك» [سنن أبي داود: ٦٣٨/٢ ح ١٥٣٥]، وفي الحديث: «دعوة الرجل لأخيه بظهر الغيب لا ترد» [مكارم الأخلاق للخرائطي: ح ٧٨٦] [الإحياء: ص٩٧٤]، ويعتبر الغزالي أن الدعاء من المسلم للمسلم حق معلوم بالشرع، وكان الصحابة يتنافسون فيما بينهم في ذلك، يقول أبو الدرداء: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي، وأسميهم بأسمائهم، ومن وصايا الرسول ﷺ: «أن نستغفر للميت وندعو له حين يقبر في مدفنه، ويقول: «استغفروا لأخيكم فإنه الآن يُسأل» [سنن أبي داود: ١٢٧/٥ ح ٣٢٢١].

(٦) ومنها الوفاء له بالعهود والإخلاص في ذلك:

ومن أهم هذه العهود عهد الأخوة والصداقة، فإنه عقد مبرم بأمانة الله ورسوله، وبشهادة موثقة في كتاب الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠]. وهذا العهد ممتد إلى ما بعد الموت، فإنه يجب الوفاء بحقوقه لأبنائه وأهله من بعده؛ لأن عقد الأخوة يراد لله ومن أجل الله، فلا ينقطع بعد الموت، وإلَّا حبط العمل وضاع السعي. ولذلك قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم القيامة... وذكر منهم رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» [شعب الإيمان للبيهقي: ٢٣١/٢ ح٧٧٣].

ولقد كان ﷺ يكرم أصدقاء خديجة بعد وفاتها وفاءً بحقها وتعبيرًا عن حبه لها، فقد جاءته امرأة عجوز، ودخلت عليه مجلسه ﷺ، وتعجب الصحابة من ذلك، فسألوه عنها، فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة» [المعجم الكبير للطبراني: ١٤/٢٣ ح ٢٣]، وإن إكرام العهد من الدين. [الإحياء: ص ٩٧٥].

ومن الوفاء بحق المسلم مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به؛ لأن ذلك أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه، وهذا يدل على تعلق القلوب ومحبتها حتى لو انقطعت الأسباب المادية الموجبة لذلك ما دام القلب عامرًا بالإيمان وبحب الله، فلا يسمح للشيطان أن ينزغ بينهما، كما نزغ بين يوسف وأخوته، وما دامت المودة لله فلا تزول أبدًا.

ومن الوفاء بالعهود ألّا يتغير حاله مع أخيه وإن ارتفع شأنه وعلا قدره بين الناس، فيظل معه على تواضعه ووفائه؛ لأن الترفع على الصديق عند ارتفاع الشأن لؤم ومرض نفسيّ، قال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

[بحر البسيط]

وينبه الغزالي إلى نقطة مهمة في شأن العلاقة بين الأصدقاء، ويقول: اعلم أنه ليس من الوفاء بالعهد موافقة الأخ فيما يخالف الدين أو يخالف حقًّا معلومًا؛ لأن ذلك لا يقره الشرع

ولا يأمر به، وليس دليلًا على سماحة النفس؛ بل يكون نفاقًا ومجاملة لا يقرها صاحب الخلق الحسن، ومن الوفاء هنا مخالفته ومناصحته والصبر على ذلك إلى أن يتغير حاله، فإن لم يتغير فالهجر الجميل أولى من موافقته على ما يخالف أمرًا دينيًا، أو يفوت حقًّا معلومًا، والهجر الجميل: هجر بلا عتاب.

ومن الوفاء بحق المسلم ألَّا يسمع مذمة الناس فيه، ولا يجاريهم في ذلك ما دام موقنًا بحال الصديق، لا سيما إذا كان الكلام صادرًا من عدو أو حسود حاقد. فإن طباع الناس غير آمنة إلَّا من رحم ربي. [الإحياء: ص ٩٧٨].

(٧) ومنها ترك التكلف في معاملة الصديق وعدم تكليفه ما لا يطيق:

ويكون ذلك بأن يشفق عليه، فلا يطلب منه ما لا يستطيع الأداء له أو يشق عليه ذلك، ولا يكلفه التواضع له أو متابعة أحوال لا يستطيع أن ينهض بها، ويجعل علاقته به خالصة لله تبركًا بدعائه ومحبة في لقائه واستعانة به على دينه وتقربًا إلى الله تعالى.

وتمام ذلك طي بساط الكلفة والتكليف حتى لا يستحي أحدهما من الآخر، ويقسم الغزالي الناس إلى ثلاثة أنواع حسب علاقتهم بعضهم ببعض فيقول: واعلم أن الناس ثلاثة:

(١) رجل ينتفع بصحبته.

(٢) ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرر به لكن لا تنتفع به.

(٣) ورجل لا تقدر على أن تنفعه ولكن تضرر بصحبته وهو الأحمق والسيئ الخلق فهذا تتجنبه.

وأما الثاني فلا تتجنبه لأنك تنتفع به في الآخرة لشفاعته ودعائه، ويوصي الغزال في هذا المقام بألا تعترض على إخوانك في نوافل العبادات كصلاة النافلة وصيام النافلة، وألا يرى نفسه أفضل منهم في ذلك، وأن يكون حسن الظن بهم دائمًا ويسيء الظن بنفسه حتى إذا رآهم أفضل منه فعند ذلك يكون هو خيرًا منهم، ومهما رأى الفضل لنفسه على إخوانه فقد احتقرهم، وهذا في عموم المسلمين مذموم، قال ﷺ: «بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم» [سنن أبي داود: ٢٤٤/٧ ح ٤٨٨٢].

ولا يتم ذلك للمسلم إلَّا أن يكون على نفسه لأصدقائه، ولا يكون لنفسه على أصدقائه. [الإحياء: ص ٩٨٢] وأن يُنزل نفسه منزلة الخادم لهم.

(٨) ويجمل الغزالي هذه الوصايا الدالة على سماحة النفس وصدق المودة: ويضع مجموعة من الضوابط الجامعة لحقوق الأخوة والدالة على التخلق بأخلاق الله وآداب النبوة، ويربط كل جارحة من جوارح الإنسان بما يتعلق بها من العمل الأخلاقي، فيقول:

أ) أما **حاسبة البصر**: فبأن تنظر إلى إخوانك نظرة مودة يعرفونها منك وتصير لك عادة يعرفونك بها ويعرفونها منك، وأن تنظر إلى محاسنهم وتتغاضى عن عيوبهم، ولا تصرف نظرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك.

ب) وأما **السمع**: فبأن تسمع كلامهم باهتمام منك وتتلذذ بسماعه، وأن يشعروا بذلك، وأن يظهر على وجهك أثر استبشارك بسماع كلامهم، فإن في ذلك تطييبًا للقلوب ومجلبة للمودة وزيادة في المحبة، ولا تقطع حديثهم إليك وهم يتكلمون لا بمنازعة ولا معارضة منك، وأن تحرس سمعك عند سماع ما يكرهونه. [الإحياء: ص٩٨٣].

ج) وأما **اللسان**: فلا يتحدث عنهم للغير إلّا بما يحبون، ولا يسمعون منه ما يكرهون، وأن يكون لسانه لاهجًا بما فيهم من محاسن، ويعلم أنه إذا ذكر معايبَ فيهم فقد اغتابهم وهو مذموم وآثم شرعًا، ويعلم أن الكلمة الطيبة صدقة، فإن لم يستطع فليكف لسانه، ويلتزم الصمت فإن فيه السلامة.

د) وأما **اليدان**: فتمتد إليهم دائمًا بالمساعدة والمعاونة سواء طلبوها منك أو لم يطلبوها، فإن رعاية مصالحهم حق لهم مندوب إليه شرعًا.

هـ) وأما **الرجلان**: فإن تسعى إلى قضاء مصالحهم ولك بكل خطوة تخطوها صدقة، ولا تسعى أبدًا في إلحاق الأذى بمسلم، فإن ذلك من شيم اللئام. [الإحياء: ص٩٨٣].

ومن حسن الخلق وسماحة النفس أن تلقى الناس عمومًا مَنْ تعرف منهم ومن لا تعرف بوجه الرضا والاستبشار في غير مذلة ولا هيبة، ومن غير كبرٍ ولا استعلاء، في تواضع من غير

مذلة، وكن في جميع أحوالك ملازمًا حدَّ الاعتدال دون إفراط ولا تفريط، هينًا لينًا في المعاملة، قال ﷺ: «أتدورن على مَنْ حرمت النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: على الهين اللين السهل القريب» [المعجم الأوسط: ٢١٩/٨ ح٨٥٤٢]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب السهل الطلق الوجه» [مسند الشهاب للقضاعي: ١٥٣/٢ ح١٠٨٣، وشعب الإيمان للبيهقي: ٤٠٣/١٠ ح٧٦٩٨] الذي إذا رآه الناس استبشروا، وإذا غاب عنهم سألوا، وكان الصحابة يتواصون بلين الكلام وإفشاء السلام وخفض الجناح، وكان ابن عمر يقول: إن البر شيء هين، وجه طلق وكلام لين. [الإحياء: ص ٩٩٤ – ٩٩٥].

التسامح مع الجار:

يرى الغزالي أن الجار له حق وراء كل الحقوق التي ذكرناها، ينفرد بها دون غيره، فإن كان خلق التسامح تظهر آثاره مع عموم الناس في السلوك والعلاقات الإنسانية فإنه مع الجار أولى وأحب إلى الله ورسوله. والغزالي يقسم الجار إلى ثلاثة أنواع:

(١) جار له حق واحد. وهو ا لجار غير القريب وغير المسلم، فإن له حق الجوار الحسن من حسن المعاشرة ولين الجانب والتلطف في المعاملة، ومعاونته إذا احتاج منك، وأن تمنع عنه الأذى المتوقع من المخالطة والمعاملة، وقد أثبت الرسول ﷺ للجار غير المسلم حقًّا معلومًا وأوصى بحسن معاملته فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» [صحيح البخاري: ١١/٨ ح٦٠١٩]، « والله لا يؤمن – قالها ثلاثًا – قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه» [مسند الإمام أحمد: ح ٧٨٦٥]، وقال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» [صحيح البخاري: ١٠/٨ ح٦٠١٤].

(٢) جار له حقَّان: وهو الجار المسلم: له حق الجوار، وحق الإسلام.

(٣) جار له ثلاثة حقوق: وهو الجار المسلم ذو الرحم. فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.

ويرى الغزالي أن حقوق الجار لها خصوصية النصوص الواردة بشأنها في السُّنة النبوية، بحيث تجعلها بمنزلة الأحكام الشرعية التي تأخذ حكم الواجب أحيانًا، وحكم السنة أحيانًا، وحكم

المندوب أحيانًا ثالثة، بحيث تجد من الشارع حصنًا لها يصون لها هذه الحقوق بمراتبها في الأحكام الشرعية التي يترتب عليها الثواب والعقاب في الآخرة.

ويؤكد الغزالي على حق الجار المشرك، وأن الرسول ﷺ قد أوصى بذلك، وليس الحق قاصرًا على كف الأذى عن الجار؛ بل يتعداه إلى تحمُّل الأذى الواقع منه والصبر عليه، والرفق معه في المخاطبة والمعاملة. [الإحياء: ص ١٠٣٢ – ١٠٣٣].

والرسول ﷺ كان نعم القدوة في ذلك، فقد كان له جار يهودي يؤذيه ﷺ ويعامله معاملة سيئة، فإنه كان يضع أمام بيته ﷺ القاذورات كل يوم. وذات يوم تخلَّف اليهودي فلم يضع أمام بيت الرسول ﷺ ما تعوده يوميًّا من إلقاء القاذورات، فكان ﷺ يسأل عنه، ويتعرف على أحواله، وهذا من تمام خلقه الحسن ﷺ.

ومن علامات سماحة النفس أن تلقى صديقك وعدوك بوجه طلق تبدو عليه علامات الرضا حاملًا لهم المحبة والمودة من غير كبر أو تخايل؛ بل بود وتواضع، فإن ذلك أدوم للمحبة وأبقى لها [الإحياء: ص ٩٨٤].

ومن علامات سماحة النفس إذا التقيت بمن يخالفك أو بذي شر فينبغي عليك أن تتحمله وتتقيه فإن ذلك كان منهجًا لصحابة الرسول ﷺ، قال أبو الدرداء: إنا لنبُش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم، وهذا معنى المداراة، قال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

فإن الفاجر والمتفحش يرضى بحسن الخلق في الظاهر أمام الناس، ولا يبحث عما في القلوب [الإحياء: ص ١٠١٠].

كيف نتعامل مع أصحاب المعاصي:

ويعالج الغزالي قضية مهمة تحمل في طياتها إجابة على سؤال العصر وكل عصر وهو كيف نجمع بين التخلق بالتسامح الذي يستلزم (العفو، الصفح، الرحمة، التراحم، الحلم... إلخ) مع

البغض في الله، وهو أمر مطلوب شرعًا [الإحياء: ص ٩٤٠]، فإن كل من يحب لله لا بد أن يبغض لله، وأوثق عرى الإيمان إذا أحب المرء أن يحب لله، وإذا كره أن يكره لله، فكيف نجمع بين التسامح والتخلق بأخلاق الله من العفو والرحمة... إلخ، والتسامح مع العصاة ومن شايعهم...؟

وللإجابة على هذا السؤال يستحضر الغزالي ما سبق أن أشرنا إليه وهو قوله: إن أصول الدين ثلاثة:

(١) الإيمان بالله.

(٢) الإيمان بالبعث.

(٣) الإيمان بالرسول.

وما عدا هذه الثلاثة فروع لا توجب تكفيرًا.

ويشرح الغزالي منهج التعامل مع هذا النمط من البشر، فيفرق بين التعامل مع الكافر وغير المسلم فلا يحرم التعامل معه، ولا يمنعه تأسيًّا بالرسول ﷺ الذي اتخذ دليله في الهجرة ابن أريقط، ولم يكن مسلمًا، ولا يجوز عند الغزالي القول بحكم شرعي عام يصدق على كل حالات التعامل مع غير المسلم؛ لأن ذلك أمر يتغير الحكم فيه بحسب الأحوال المقارنة له، ولا يخضع لحكم عام شامل لكل الأحوال. وللمجتهد في كل عصر أن يغيره بما يناسب حاله. ولا ينسى الغزالي أن ينبه إلى التعامل مع غير المسلم بالتي هي أحسن لتحمل إليه رسالة الإسلام في تعاملنا معه، وهي (لتعارفوا).

أما التعامل مع العصاة من المؤمنين فإن الغزالي يشرح ذلك بمنهج عقلي، فيقول: مهما اجتمع في شخص واحد خصال تحب بعضها وتبغض بعضها فإنك تحبه من وجه، وتكرهه من وجه، فتحب ما فيه من طاعة، وتكره ما فيه من معصية، ولا تناقض بين الاثنين، ثم يقول: ومن حقه عليك أن تعينه بإقالته من عثرته بالنصح اللطيف والكلمة الطيبة، وليس بالقول الغليظ؛ تلطُّفًا به وشفقة عليه، وإظهارًا لمودتك له، وينبه الغزالي إلى أن المعصية إذا كانت بين العبد وربه فهي إلى العفو والغفران أقرب [الإحياء: ص ٦٤٦].

-٩-

التسامح من أعمال القلوب

إن التسامح الذي يتحدث عنه الغزالي وأوصت به الأديان السماوية الثلاثة في وصاياها (بالعفو والصفح والحلم والصبر... إلخ) يعتبر عملًا قلبيًّا باطنيًّا، يظهر أثره على الجوارح في سلوك الأفراد وفي معاملاتهم وفي العلاقات الاجتماعية بين الناس، وينبِّه الغزالي إلى ضرورة صدور خلق التسامح عن يقين القلب، والإيمان بأن ذلك تعبُّدٌ لله وتقرُّبٌ إليه وحبٌّ في مرضاته وشوقٌ إلى لقائه وعفوه، وليس عملًا مظهريًّا ينال به المرء سمعة طيبة أو جاهًا ووجاهة اجتماعية بين الناس.

إن التسامح الذي يتحدث عنه الغزالي ليس وصفًا ظاهريًّا للسلوك في زمان أو مكان أو لشخص معين، إنه يتجاوز كل هذه الظاهريات إلى تحقيق معنى جوهري أوصى به الرسول ﷺ في قوله: « أوثق عرى الإيمان إذا أحب المرء أن يحب لله، وإذا كره المرء أن يكره لله» [شعب الإيمان: ١/١٠٤ ح ١٤ بنحوه]، ولا يقاس التسامح بنتيجته المادية المحسوسة أمام الناس، وإنما يُقاس بمصداقية الهيئة النفسية التي صدر عنها الفعل من صفاء القلب وشدة التشوف إلى رضا الله وعفوه، يقول الغزالي: «فلا تنظر إلى ظاهر هيئة النفس الراسخة التي تصدر عنها الأفعال بيسر من غير تكلف... فليست النجاة موقوفة على الكمال في الظاهر» [الأربعين في أصول الدين: ص ١٨٠]؛ بل أن تكون النفس صادقة في ميلها إلى الحسن والمزيد أكثر وأكثر.

فالتسامح الظاهري ما لم يكن صادرًا عن يقين القلب فلا أثر له في تحقيق رضا الله، ويكون رياءً ونفاقًا، ومجاهدة المرء في سلوكه لقهر القوى الغضبية هو نوع من الصبر الذي يحتاج إلى مصابرة لشدة شوق النفس إلى شهواتها الغضبية بحب الغلبة والانتصار.

وامتلاء القلب بهذه المعاني الأخلاقية الحسنة يجني المرء ثمرته بردًا ويقينًا ورضًا وطمأنينةً، والتخلي عن التعصب والغضب والحقد والحسد، ويتجلى إثر ذلك على وجه الإنسان بشاشة وسرورًا، ويتوافق باطن الإنسان مع ظاهره، وهذا هو (حال الرضا)، يقول الغزالي: أن يكون

الإنسان في فكرته الباطنة كشأنه الظاهرة، فيحرص على أن يزين باطنه لله كما يحرص أن يزين ظاهره للناس [الإحياء: ١/٦٦].

هذا والله أعلم.

أ.د/ محمد السيد الجليند

أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية

دار العلوم – جامعة القاهرة

مصادر البحث

أولًا: مؤلفات الغزالي:

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ط دار الشعب بالقاهرة بدون تاريخ.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ط مكتبة الجندي بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام، للغزالي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(٤) جواهر القرآن، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(٥) الرسالة اللدنية، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(٦) الرسالة الوعظية، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(٧) رسالة أيها الولد، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(٨) روضة الطالبين، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(٩) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(١٠) القسطاس المستقيم، للغزالي، ط القاهرة، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(١١) قواعد العقائد، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

(١٢) معارج القدس في معرفة أحوال النفس، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.
(١٣) معراج السالكين، للغزالي، ط مكتبة الجندي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.
(١٤) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسني، للغزالي، بتصحيح محمد مصطفى أبو العلا مدير التعليم بالأزهر.

ثانيًا: مراجع عامة:

(١) الإمام الغزالي دراسات وبحوث، أ.د/ محمد السيد الجليند، مكتبة الأزهر للتراث، ٢٠١٥م.
(٢) الإمام الغزالي: كتاب تذكاري عن العيد المئوي عن الغزالي، بدمشق، ١٩٦١م.
(٣) تربية الطفل بين الغزالي وجان جاك روسو، د. محمود قاسم، ضمن كتاب دراسات في الفلسفة الإسلامية، ط القاهرة، ١٩٦٦م.
(٤) تمهيد لدراسة علم الكلام، أ.د/ محمد السيد الجليند، دار قباء، ٢٠١٦م.
(٥) الفلسفة الأخلاقية لدى مفكري الإسلام، أ.د/ محمد السيد الجليند، مكتبة دار الهاني، ٢٠١٣م.
(٦) قضية الخير والشر لدي مفكري الإسلام (المعتزلة والأشاعرة نموذجًا)، أ.د/ محمد السيد الجليند، مكتبة الأزهر للتراث، ٢٠١٩م.
(٧) النفس والعقل بين فلاسفة الإغريق والإسلام، د. محمود قاسم، دار الثقافة، ١٩٦٤م.

الفهرس

(١) التسامح اللفظ والمعنى ٣
(أ) الدلالة اللغوية ٣
(ب) الدلالة الاصطلاحية..... ٤
بين المعنى الاصطلاحي والمعنى المعجمي ٥
بين التعصُّب والتسامح ٥
(٢) التأصيل الشرعي لموقف الغزالي من خُلُق التسامُح ٦
التسامح شعار الإسلام ٦
(٣) التعصُّب والتسامح بين الغزالي وعلماء الكلام ١٣
مراتب الوجود التي لا تستدعي تكفيرًا ١٥
(٤) التسامح لا يعني التحلل من أحكام الشريعة..... ١٧
(٥) التسامح ضرورة اجتماعية ٢٠
(٦) التسامح أمر إلهي في الأديان السماوية الثلاثة ٢٢
(٧) بناء الأسرة على التسامح ٢٤
أثر التسامح في بناء المجتمع..... ٢٦
مسئولية العالم والمربي ٢٧
(٨) مظاهر التسامح على مستوى العلاقات الشخصية (حقوق وواجبات)..... ٢٩
حق الجار ٣٨
كيف نتعامل مع العصاة..... ٣٩
(٩) التسامح من أعمال القلوب ٤١
مصادر البحث ٤٣
الفهرس ٤٥